الفن الأسكنـــــدرى

للدكتور أحمد موسى

لا نقصد بعنوان المقال تحديد الفن بعصر الإسكندر كما لا نقصد تحديده بمدينة الإسكندرية وحدها، وإنما المقصود بالفن الإسكندرى أنه الإنتاج الفنى فى البلاد المصرية منذ تأسيس الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م إلى نهاية حكم البطالسة ، ذلك الفن الذى عُرف أمره وتأثر به فن العالم القديم

وبالنظر إلى قلة ماتبقى من هذا الإنتاج وإلى ضآلة المواد العلمية التى يمكن الاستناد إليها ، وإلى ما بين أيدينا من الآثار البطليموسية فإن تاريخ الفن الإسكندرى بمعناه الشامل من الموضوعات العسيرة التى تجعل البحث ناقصاً قابلاً للنقض فى بعض نواحيه ؛ إذا ماظهر من نتائج الحفر وما قد يعثر عليه من النصوص ما يميط اللثام عن بيانات واستنتاجات تغير ما تقرر حتى الآن

على أنه يمكن القول بأن ما بقى من التماثيل وبعض الآثار يعطى ما يفيد فى هذا المجال ، ويمهد السبيل إلى معرفة المدى الذى وصل إليه أثر الفن الإسكندرى فى الفن الإغريقى أو الهيلينى

ومما لا يقبل الشك أن مدينة الإسكندرية كعاصمة للبلاد أنشئت وشيدت على نمط رائع من حيث التخطيط العام للمدينة ومن حيث تنظيم شوارعها ومبانيها التى عملت لأول مرة فى هذا القطر من الطوب بطريقة هندسية جديدة فى نسقها جميلة فى مظهرها ، ولاسيما أن حوائط المبانى كانت مغطاة من الداخل بلوحات من المرمر زخرفت بنقوش من المعدن . وهذا كله نتيجة للرغبة فى التمدين والعطش نحو الأبهة

وكان شغف الأمراء من أبناء البطالسة وتقديس الناس للآلهة خير دافع إلى إقامة المعابد الهائلة بحوائطها المزخرفة بالنقوش والكتابات ، كما كان سبباً فى إحياء فن النحت والتصوير ، إلى حد أن كانت بعض التماثيل تعمل من الذهب والعاج فى غاية من الدقة والجمال .

تمثال النيـــل

وبطبيعة جو الإسكندرية الأقرب إلى الجو الأوربى والخليط الذى كان يعيش فى تلك المدينة من البطالسة والمصريين وغيرهما ، كذلك وجود الفلاسفة المشتغلين ضمنا بالطب والجراحة فضلاً عما بعثوه فى العقول بتعاليمهم التى تحض على النظر والدرس والتأمل إلى جانب مجموعة الكتب العظيمة بالمكتبة الخالدة — فى هذا المحيط وهذه البيئة نشأ الفنان الإسكندرى محاطاً بما يوقظ فيه روح العمل والابتكار

ولعل خير مثل لذلك بقايا التماثيل ومنها رأس من البرونز يمثل امرأة مصرية تجلت على ملامحها مصريتها وحيويتها[1] .

وكان للانتاج الفنى غير العمارة والزخرفة والنحت الواقعى Realistic Sculpture اتجاهاً مثلياً رائعاً تراه فى تمثال « النيل »

(١) راجع Von Sybel, Weltgeschichte der Kunst:
وأيضا Rayet, Monuments de l'art antique II. Paris 1883.

المحفوظ بالفاتيكان فى روما ، والذى وصل منه أنموذج إلى هذه البلاد منذ أعوام . فإذا نظرت إلى صورته رأيت إلى أى مدى استطاع الفنان الوصول إلى ذروة الفن المعاصر لتلك الأيام ، فإلى جانبه تتضاءل التماثيل التى عملت للأمراء ولهوميروس ، والتى لا يمكن أن توصف إلاّ بكونها من أحسن ما أخرجه الفنانون

أنظر إلى صورة الإلـه « النيـل » ولاحظ ما بدا على وجهه من عوامل التأمل والتفكير فى مصير أولاده الستة عشرة « فروع النيل الكبرى والصغرى » وشاهد كيف يتكىء بكتفه على (أبى الهول) الرابض بجانبه ، وقد اختار الفنان «لأولاد النيل » أوضاعاً شتى فظهر كل منهم مخالفاً لغيره ، وفى هذا ما فيه من الغنى الفنى

كذلك اتجه التصوير اتجاهاً جديداً نخرج من تمثيله لصور الأمراء والعظماء إلى تمثيل الحياة العامة والعادات الاجتماعية فرسمت على الحوائط مناظر صادقة فى التعبير عن العصر الذى عملت فيه ؛ وغير ذلك للمناظر الطبيعية كتلك التى صورت لنا أجزاء من المدينة محاطة بالغابات ذات الأشجار العالية ، والتى نصبت بينها تماثيل بأوضاع دلت على حسن التنسيق والوصول إلى درجة فائقة فى فن تخطيط المدن وهندستها ، وهذا الوضع يذكرنا بالحالة التى كان الفن البومبيانى (نسبة إلى بومبى) يسير عليها

على أن الفن الاسكندرى ، أو إن شئت فقل الفن المصرى فى عهد البطالسة ، كان قصير العمر بالقياس إلى الفن المصرى فى عصور أخرى أو إلى الفنون الأجنبية ، فعند ما وصل الفن البرجامونى والفن فى رودس إلى أوج عظمتهما حوالى منتصف القرن الثانى قبل المسيح ، كان الفن الإسكندرى سائراً نحو الهبوط ؛ فانتقل إلى إيطاليا . وخير برهان على ذلك أنه فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد شيدت فى بمبى عمائر على نمط لا يختلف فى الجوهر والمجموع الإنشائى عن ذلك الذى بنى للمرة الأولى فى الأسكندرية ، حتى الزخارف التى عملت على حوائط هـذه العمائر فإنها شملت ذلك الطابع الإسكندى المميز ، والذى يقرر تأثرها بها أفصح تقرير

هذا فضلاً عن أن العارف بتاريخ الفن الدارس لأصوله يذكر جيداً أن المشيدات التى أنشئت فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، سواء أكان ذلك فى منطقة كمپانيا أم فى روما ، وسواء فيما يتجلى على البناء المقدس للآلهة « پانتيون أجريبا[1] » Pantheon of Agrippa أو بناء مسرح پومپيوس[2] Theatre of Pompeyus أو قصر نيرو الذهبى Nero Golden Palace كلها تدل على أنه لا مفر من الاعتراف بوجود أثر الفن الاسكندرى فيها .

ظهرت بعد هذه المرحلة صور رائعة هى تلك التى رسمت على أغطية توابيت الموتى ، والتى قصد بهـا الاستعاضة عن الأقنعة الذهبيـة التى كان المصريون الأقدمون يعملونها على الأغطية لتمثيل وجه الميت .

وكان ظهور هذه الصـور تدريجياً ونادراً ومرتبطاً بنتائج الحفريات التى عملت

(١) راجع Huelsen, in Mitteilungen des Archaeologischen Institutes 1893.

(٢) مبنى أقيم فى روما (يعرف الآن بكنيسة سانتا ماريا روتوندا) أكمل أجريبا بناءه سنة ٢٧ ق.م ، وقد دفن فيه رفايل وأنيبال كراتشى وفيكتور إمانويل الثانى ، وقد ثبت أن هذا المبنى لا يتصل بحمامات أجريبا كما كان مظنونا قبلا .

فى الفيوم[1] منذ سنة ١٨٨٨ ولـكنه على جانب من الـكثرة التى تسمح بالدرس والتأريخ .

وقد اخترنا ثلاثاً منها تعطى فكرة صحيحة عن قوة التصوير ودرجة إتقانه ، فبالنظر إليها نلاحظ جمال الملامح وحسن التعبير ونبل الإخراج ، إلى جانب ما يبدو على الوجه ويشع من العينين من تأثر نفسانى عجيب .

(١) كانت الفيوم فى التاريخ المصرى القديم أرضا غير زراعية ، عمل الفراعنة منذ الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق . م) على تخصيبها وتعميرها وذلك بمد القنوات النيلية إليها وبناء مساكن لاتؤثر فيها مياه تلك القنوات . وقد وجدت قناة نيلية طبيعية على بعد ٢٢٠ كيلو مترا جنوب بنى سويف كانت مياهها تنصرف فى الصحراء الغربية فعمل المصريون على تحويل مجراها ومدوه حتى وصل إلى الفيوم بالقناة الحالية المسماة بحر يوسف ، ولا تزال بعض آثار السـدود التى أقاموها بقصـد حجز المياه ورفعها للتمكن من رى الأراضى المرتفعة نسبيا ، موجودة للآن ، وبهذا أمكن تحويل مجرى المياه إلى الفيوم وتصريفها فى أرضها فنشأت من ذلك الخصوبة التدريجية .

وكانت نتيجة وصول المياه إلى تلك المنطقة أن تجمع الزائد على الحاجة منها فى جزء منخفض فتكونت بحيرة موريس كما سماها الأغريق (بالمصرى القديم M-weret) . وأمكن باستخدام السدود والخزانات رى الفيوم وما يجاورها ، ونشأ عن ذلك تكوين بحيرة قارون الحالية . وقد سمى أقباط مصر هذه البحيرة « فيوم » Pheom ، وهكذا ظل الاسم حتى الآن

وعلى الساحل الغربى لبحيرة موريس وجد قصر لابيرنت Labyrinth كما وجد أهرام أمنمحت الثالث (٢٣٠٠ ق . م) وبالقرب منه كانت العاصمة التى سميت فى عصر الأغريق كروكو ديلوبوليس نسبة إلى التمساح وبعدها سميت أرسينو Arsinoe . وقد عثر المنقبون فى القرن التاسع عشر على كثير من المخطوطات القيمة فى تلك الأماكن .

ومدينة الفيوم الحالية تقع فى شمال هذه المنطقة ، حيث يوجد جامع بأعمدة أثرية قديمة .

ويمكن التوسع فى هذا الشأن وفى أغطية الموميات المصرية فى عصر البطالـة مراجعة :

(1) The Fayum and Lake Moeris, London 1892

(2) Grenfel and Hunt, Fayum towns and their papiri. London 1900

أما لابيرنث فهى تلك المبانى التى أقيمت على سطح الأرض وفى باطنها، وكما ذكر هيرودوت (٢ — ١٤٨) وسترابو (١٧ — ٨١١) كان مجموع الغرف ثلاثة آلاف كلها من الحجر ، وإذا اجتمعت كل معابد الأغريق فى مساحة واحدة تتضاءل أمام مساحة هذه المبانى ، كما قررا أنها كانت أجل من الأهرام وظلت قائمة حتى خربها الرومان فلم يبق منها إلا الأحجار التى أزيلت بمرور القرون والأعوام وأقيمت مكانها المقابر ، وقد أجرى السير فلندرز بيترى العالم الأثرى المعروف أعمال الحفر وعثر على مجموعة رائعة من الصور وغيرها .

راجع : Edwards, Pharaohs, Fellahs. p. 95

١٢٠٩

وكان تصويرها بالألوان على خشب الجميز أو اللبخ على ما نظن وكذلك على قماش التيل — وكانت توضع على التابوت أو تثبت فى غطائه مكان الرأس

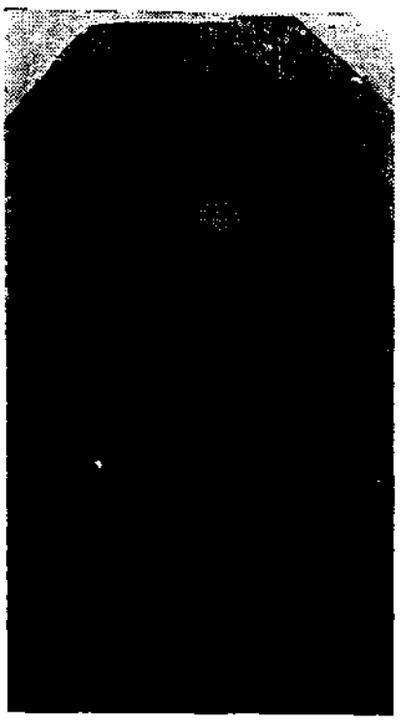

وكانت الألوان معدنية مخلوطة بالشمع أو بصفار البيض أو بالغراء وأحيانا بهما معاً ، يرسم بها (ماعدا ما كانت بالشمع) على سطح مدهون بالجبس أو الطباشير .

ويتضح من الـكتابات التى نقشت على لوحات صغيرة ووضعت مع التوابيت أو فى داخلها أو التى كتبت على بطاقات صغيرة من الخشب وثبتت إلى جانب العنق Mumies-eticette أن أصحاب هذه الصور كانوا من الأغريق ، وبالرغم من هذا فإنه لا يمكننا الارتكان إلى ذلك لمجرد علمنا بأنه حتى ولو كان الأغريق قد تعودوا عادات المصريين فى طريقة التحنيط والدفن الخ ، فى القرن الثانى قبل الميلاد ، فإنه يبعد كثيراً أن يكون أصحاب هذه الصور من الأغريق لاختلاف ملامحهم ولون شعرهم وتجعده ولون العيون فضلاً عن المجموع التكوينى للرأس . وقد تكون هـذه الصور بالرغم مما كتب عليها غير معاصرة للبطالـة .

ومهما يكن من شىء فإن عصر الفن الإسكندرى مع قصره كان شاملاً لمدينـة الأسكندريه بمكتبتها ومنارتهـا ، وشاملاً لآيات من الفن لم يبق منهـا إلا القليل الذى مع قلتـه دل دلالة صريحه على أن الفن المصرى فى تلك المرحلة ، وإن كان قد سار فى اتجاه يلائم العصر الذى وجد فيه ؛ إلا أنه أثر فى غيره أكثر مما تأثر هو بالغير .

احمد موسى